

المظاهرة

وجوههم الشمس الذهبية المائلة الى جهة الشرق قليلا ، ولان تقدمهم في الشارع كان يمضي في اتجاه الشمال الغربي فان ظلالهم كانت تسقط الى يسارهم متخذة هي الأخرى أيضا اشكال اشباح متعاقبة ، تبدو افتح قليلا من لون بشراتهم السمراء . كلهم في اوضاع مختلفة: اذرع ترتفع باكف فارغة ، واخرى تقبض اصابعها بتوتر على مناديل رطبة ، ورؤوس مرفوعة ، اما قليلا تحت زحمة الرؤوس الأخرى او اكثر من ذلك ، حتى ان العيون تستطيع ان تحديق في السماء الفارغة التي لا تنذر بشيء . حينذاك اخذ شاب طويل ونحيف ذو وجه عريض وتقاطيع حادة يتحرك بسرعة اشد مع الحشد ، يمرر هياجه في جسده الرشيق كجسد الراقص ، وكذلك الى ذراعيه الطليقتين وفمه المفتوح كالقوهة الصغيرة ، وبعدها ادار ظهره فاصبح ينظر الى الحشد المندفع من الوجوه المعروفة المتراسة ، وهو يتقدم نحوه دون ان ينطق كلمة ما . وجوه مسطحة . وجوه ممثلة . وجوه مستدقة كنباتات غريبة تنمو اكثر فأكثر . وجوه مربعة . وجوه لوحتها الشمس الصباحية ، واخرى تتألق في عيونها الشديدة السواد مخاوف تنتشر كالما . وعندما ينظر الشاب ، في تقدمه الى الخلف ، نحو اعلى الحشد يدرك ربما للمرة الاولى ان تلك الشرفات التي تشغلها نساء وعائلات خرجت من الشقق ، واخذت مكانها على المقاعد الوثيرة في الشرفات لتراقب المشهد بأكمله ، تتحول الى كتلة من العيون الجميلة تقبض بنظرات مدهوشة بفعل المتعة التي تثيرها تلك التوافقات من الاصوات العديدة ذات الاجراس المتنوعة .

كانت هناك امرأة تجلس في الشرفة الاولى على اليسار مستندة بيديها على السور الحديدي ذي الازهار المعدنية السوداء اللتحمة ببعضها في اشكال متكررة . كان رأس الفتاة متهدلا قليلا حيث يواجه هواء الشارع كطائر ابيض يقف فوق كتلة من الزبد والماء والاعشاب الميتة صفراء ورخوة تماما .

قالت المرأة :

– هل احضرت قالب الكيك ؟

اجابت الفتاة الواقفة امام الباب :

– ساحضره بعد ان تنتهي المظاهرة .

صرخت المرأة :

– ماذا نقول لضيوفنا اليوم ؟

قالت الفتاة :

حين ظهر القوس الذهبي للشمس في حافة البناية ، سحبتهم الشوارع المفتوحة اليها من مكان تجمعهم تحت سقف طويل من الاسمنت يستند الى اعمدة ضخمة تفوص في الارض برسوخ تام ، وتبتعد عن بعضها بمسافات متساوية بدقة . كانت تلك الاعمدة متشابهة اللون : الطلاء الازرق في النصف الأسفل ، والطلاء الرصاصي في النصف الآخر ، وكان اللون الرصاصي معتما في منطقة اتصال العمود بالسقف لان الظل اعق بكثير من عتمة اللون . كانوا قد اجتمعوا منذ الفجر . الان هم يتجهون الى مكان ما . اجساد معتقلة داخل سراويل وقمصان ملونة ذات الوان تتداخل بهيئة نسيج غير مالوف ، وافواه تضخ بحماس اصواتا رجالية عالية تتضح في البعد واضحة ومسموعة كما لو انها تمر عبر مكبرات صوت حديثة الاستعمال . بدت رؤوسهم متشنجة بعض الشيء . كانت هناك اربع او خمس لافتات تتأرجح في مسنوى اكثر بقليل من مستوى الرؤوس . ترتبط كل واحدة منها بساريتين قويتين من الخشب الصلب . ووسط الجموع يستطيع الناظر للحشد ان يميز من الوهلة الاولى اسفل الرؤوس وجهي صبيين متالقين يمسك كل منهما طرف السارية من الاسفل باصابع مضمومة بشدة ، وفرح فامض يطفو على وجهيهما ثم يتبدد على الازرعوالثياب والاقدام . وتبدو كل ساريتين متوازيتين اشبه برمحين مستدقين يطعمان الهواء الساكن من وقت لآخر . كان الحشد حتى لحظة دخوله في شارع ثان يتقلب على الجانبين بشكل طفيف .

قال رجل من خارج الحشد :

– لم ار في هذه المدينة من قبل مظاهرة بهذه الضخامة .

قال شاب يقف لصق الرجل :

– هذا صحيح . ان الجميع قد شاركوا بحماس .

الان ارتفعت في الداخل اصوات تهتف بضمف في وقت واحد . كانت في مجموعها اصواتا مرتبكة ، ووضح اخرون هناك في منتهى الحشد اكثر هياجا . شريط ملثف من الرؤوس والايدي البالفة الضخامة ، ليس في قبضاتها سوى تلك المناديل النظيفة التي تنفتح باشكال هندسية متخذة اما شكل اسلحة من نوع غريب او شكل وجوه مجمدة ميتة في ارتفاع قاماتهم غير القابلة للثبات . وهناك مجموعة اخرى من الافواه النشطة تدلق اصواتها بفترات منتظمة على امتداد حركة الحشد الهائج كالسيل . انهم يسرون نحو الامام متقدمين بخطوات قصيرة عبر خطوط متعرجة ، او شديدة الاستقامة ، ولكنها لا تتقاطع مع الخط الذي يصنعه رصيف الشارع العريض . تلتطخ

— حسنا . ساذهب الان بعد ان امشط شعري .

.. ومضى الشاب في تفكيره مشغولا بالاصوات المنبعثة من كل مكان : اصوات الافواه البشرية المدوية بصخب ، واصوات الاكف اللاهية وهي تصفق بدوي . ثم اصوات الاحذية والتعال اذ ترتطم على ارضية الشارع محدثة ايقاعا مشوشا الى حد ما لكنه مرتفع وسموع فيما تنمو على الجانبين اصوات ضعيفة خائرة لاطفال ونساء مقنعات داخل عباءات عميقة السواد وباعة جوالين او اصحاب عربات ، ومرة اخرى يجهد الشاب الطويل في التعرف على المرأة صاحبة الوجه المثلث التي شرعت تصفق من مكانها على الشرفة بجمل حاد . وهو ما يزال مشغولا ايضا في ان يحافظ على سعة المسافة كما هي : مستمرا بنفس الاتجاه : الشمال الغربي ، وعلى بعد بضع سنتيمترات من مقدمة الحشد . فهي تنقلص من وقت لآخر . لكن المظاهرة تمضي وتمضي في شارع فسيح مفتوح ، في مدينة اليقة . تحت شمس براق . في طقس حار .

(خيل للشاب ، وهو يتقدم بخطوات كبيرة انه يرى رجلا بملامح غائمة .

يسال الرجل :

— ما بك ايها الشاب ؟

يقول الشاب بهدوء :

— انني اتذكر ما حدث في الماضي .

— ما جدوى ذلك الان ؟

— انني لا ادير ظهري للماضي . وافكر بالآلاف الرجال الذين سقطوا قتلى ، الذين اقتسلوا بدمائهم الحارة .

—

— الذين دخلوا المعتقلات دون ان يكفوا عن الابتسام لهذا الوطن اذ يعتمد بجروحهم .

—

— في سنوات الياس والسقوط .

—

قال الشاب في نفسه كما لو كان يفني بهدوء وبنبرة ودیعة مرتجفة :

— سلاما ايها الرجال الشرفاء الذين اعرفهم ولا اعرفهم . ايها النافخون على ابواب الاستقلال . يا امرء المنفى . ان مجدي على الرمال . ان مجدي على الرمال .)

كان يقف هناك لصق السياج رجل في سن الخمسين ، يفصله عن وسط الشارع غطاء طويل من الاجساد البشرية الساكنة . يستند الرجل الى حافة السياج باصابع ثابتة فيبدو وكأنه مغمور بماء شفاف ، وترنج ناهضا من تلك الحالة الكسولة ، ثم ابتعد عن السياج دون كلمة ، لكن تقدمهم الحاد ملاً سكوته بالافكار . رآهم من بعيد معزولين تماما كاجساد شاحبة برؤوس عارية ، واذرع تلوح باتجاه عمودي كما لو انها تحمي نفسها بحركة لا ارادية من ضغط الهواء الطلق . وحين اصبح الرجل امام الشاب حاول الشاب بجهد ان يتذكر اين راي هذا الوجه من قبل . كان وجها ممتلئا بخاديد . وللمرة الاولى اخذ الشاب داخل الحشد يتوغل في منطقة غريبة ذات مناخ استوائي ، لها رائحة شبيهة برائحة جو الفرفة الرطبة ، وكأنه ينظر من مكان منخفض ، ويشم بكل عروق انفه المثارة روائح مختلفة ، لم يعد يستطيع تمييزها بصورة صحيحة . كانت عيونهم تحلق باتجاهه بشكل حاد ، وقبل ذلك كان قد سبج وسط الاكتاف المتزاخمة وعيناه مفتوحتان حتى اصبح يوسمه ان يرى الايدي ، وهي ترتفع باتجاه

الشخص الذي اخذ يصرخ فوق كتف احدهم . ثم تنخفض لترتفع من جديد كاقصان عارية ، ولكنه قبل ان يصل الى المنطف كان هناك رجل ابيض الشعر تماما ، اخذ يحاور شابين يقفان بجواره فرفاه بايديهما حتى اصبح في وضع حسن . راي الشاب الرجل ابيض الشعر ذا البنية الهزيلة ، وهو يرفع يده ثم يلقي اقواله بلهجة حماسية . كانت عيناه واضحتين خلف عسستي النظارة البصاويتين كأنهما محارتان صغيرتان مفسولتان بالدمع . كانت الاف الافواه تطلق اصواتها ، لكن الشخص الذي يتقدم المظاهرة الان يلتفت بحدس الى الصبيين ويوصيهما بان يرفعا الساريتين قليلا ويمسكا بقوة اشد .

قال الرجل ذو القميص الازرق للصبيين بصوت قوي :

— هل تسمعان ؟ ليعتمد كل منكما عن الاخر حتى تبدو الكتابة واضحة . ان الثنيات في اللقطة تغطي على الحروف .

أوما الصبيان براسيهما علامة الموافقة . وكان هناك مجال متسع للحشد ان يرتفع برؤوسه الالف ليمس تلك الكلمات الخضراء : الطلاء الاخضر الجميل المتوزع في حروف رشيقة ويمكن النظر الى الوجوه ومراقبتها وهي تطفح بتعبير صارخ . وكان الشخص الواقف فسي مقامة الحشد على بعد ثلاثة امتار من الساريتين يتقدم بتناقل كالتنام . انه يقوم الان بحركة مماثلة لحركة زميله الواقف امام اللقطة الاخرى . يلتفت ، ليراقب ان كل شيء يجري وفق خطة مدروسة ثم يعطي تعاليمه بهدوء ، وهو يلهث بنفس ذي صوت واضح كما لو ان ذلك النفس المضطرب يحول كل شيء من حوله الى اشياء تدلق اسرارها بعجالة .

كان هناك مراب مفتوح تطلع منه الى وسط الشارع رائحة سيارات معطلة استمدت احشاؤها المهمة الحافات لاستقبال الزيت ، وبسدت نهاية الحشد مختفية خلف الرقعة التي تكونها مساحة اللقطة فبدا وكان الصوت الاتي من نهاية الحشد يصف بالندرج خائرا ومفككا كجسد يطن في جهة القلب ، مستسلما وغائرا في التلاشي . في هذه اللحظة يراقب الشاب من مكانه على الرصيف ، وهو مغمور بسائل الفرح والرعب والحماس . ثمة رؤوس بشرية صلبة لم تكن حاضرة من قبل تطفح الان عيونها انتحفة وسط المحاضر برؤوس تبدو تحت الضوء الطليق المنتشر كجذور نباتات مقتلعة من الطمي . وكالات المعنوية المفككة بانتظار الزيت . كان الشاب واقفا ، وقد سلخ عنه وعيه . يتحرك على الرصيف الطويل مع تقدم الحشد . ولكنه لم يكن يتعرف على شخص ، وهكذا فقد كان الوجه الغريب الذي يجاوره (وهو يقاتل بصوته الابح اعداء مجهولين) قد ذكره بشاب اخر .

قميص ابيض . وجه ابيض . اسنان بيضاء .

فجأة راي الشاب انه يدخل في حلم ضبابي . الوطن ياخذ شكل الشاب ذي القميص الابيض ، عاريا يفسله نور قوي . شاب كبير ابيض يغطي هذا الموكب باكملة محمولا بدفع الاصابع المشرعة . ذو عيين زرقاوين فارغتين من الانفصال . وليس هناك سوى مطر من الزنابق الملونة . لكن خطوط الطلاء على القماش كانت تضطرب ازاء حركة الهواء ملتوية او مختفية في الثنيات المستحدثة من تقوس القماش والتفافه المتجدد ، كأنها رهن بحركة الهواء ، وكذلك رهن باية حركة تصدر من يدي الصبيين . تحرك رجل ضخم قصير القامة يحمل على وجهه تعبيراً من التحدي والخجل كنسيج متصل من مادة سائلة شفاقة . تقدم خطوات قليلة ثم اخذ يتخطى بعجلة وارتياله في الداخل . كانت حركته متعرجة . انه يبدو مثل كومة القمصة رطبة تمضي في ذات الاتجاه الذي تسلكه اللقطة . حتى ان حركة لراعيه

كان لها تناقض واضح مع ركبتيه ، وهي تنتقل وسط اقدام اخرى هانجة كاجزاء مشلولة من الجسد . كان يرتدي قميصا ازرق اللون ، منهذلا في منطقة الكتف وسروالا اخضر غامقا . حين فمرته الموجة البشرية اختفى او ضاع وسط تلك الموجة من الوجوه . كسان حلم الرجل القصير وهو يدخل بينهم ان يصرخ او يشتبه او ان يطوف بلا هدف في شوارع المدينة المستسلمة ، وكأنه ود ان يقف على قمة عالية ، ناظرا الى الاسفل ممثلا بمثل تلك الروائع والاشكال التي تلتقطها الحواس في لحظة استنارة خاطفة ، كحواس جندي مقطوع اليدين مرمر بين الانقاض . كان ذلك يعطيه شعورا بانه قوي ، وهو يركض نحو مستقبله ، وحينما التفت عينه منظر الشاب الطويل النحيف جهد ان يتذكر اسمه . كان فم الشاب يتحرك كقتله . لم يكن يريد غير ذلك . ومضى في تفكيره . استعاد في ذهنه صورة لوجه مقاتل ذي تقاطيع صارمة ، يسقط على الارض كمادة اليقة مشعة كانه شاشة تنظم عليها خطوط الالوان المنبثقة من مكان ما حيث يتحرك شريط سينمائي . ورجب لو يعود الى الخلف ، وكأنه بمحاولته العودة في اتجاه معاكس كان متخفيا في حركة جندي يتقدم عبر ارض محترقة تماما . سيثبت تلك الافكار التي بلغت به هذا الحد من الإدراك وهي تقفوس في اعماق نفسه . وعندما توهجت الاضواء كانت الشوارع المنحصرة تحت اقدام تتخذ شكلا شبيها بالشكل الذي تتخذه طيور مينة على سطح مياه بركة تحت انوار شمس براءة . وحين دخل الحشد في منطف اخر كانت قوى الشاب قد اضمحلت . وهو في هذه الحالة التي كف فيها حتى عن الحزن . كانت عضلات قدميه تتقدم بميكانيكية وهو يلهث .

من زاوية على الرصيف كان رجل في سن الخمسين ينظر الى الوجوه ذات الافواه المفتوحة . وكانت هناك طفلة في السادسة تحرك يدها بقوة مجدافين صغيرين يخفقان بارتجاج على حافة السياج . آنذاك اخذت تصرخ صرخات مفاجئة عندما علت الاصوات .

قال الرجل للطفلة باشفاق :

— اذن انت تحبين ان تشاهدي الجميع .

فاجابت الطفلة ببرادة :

— نعم . اني احب ذلك ، ولكنني صغيرة .

اشعل الرجل سيجارته بهدوء ، ونظر الى عيني الطفلة ، ثم

قال :

— اذن اصعدي على هذا السياج .

قالت الطفلة :

— لا استطيع . انه مرتفع .

قال الرجل بصوت ضاحك :

— ساساعدك .

حملها الرجل من ابطيها ، ووضعها على حافة السياج . استقبلت الطفلة مكانها الجديد بفرح غامر ، قالت :

— انني ارى كل شيء بوضوح .

سألها الرجل :

— ماذا ترين الان ؟

— انني ارى الايدي فقط . هل ترى انت شيئا ؟

— نعم . انظري الى هناك كيف يصمد ذلك الشاب ليهتف .

كان الفضاء مسمسا كلسان بحري ، وهو مفرغ من الفيوم الصغيرة التي اختفت منذ اسبوع . والبيوت في الجهتين مهجورة تماما . ان اصابع الكف اليمنى للرجل تنام في اصابع الكف اليسرى، ووجهه يبدو حاد الفسما . يستدير الان بنفس السرعة التي يستدير بها الصببي حامل الافلاحة ، وهو يتخذ وجهة اخرى . في شارع اخر . وحتى الان لم تكن السارينان غير خيطين رفيصين يشعان بخضرة خافتة . اقترب الشاب الطويل ، واصبح في جوار السارية اليمنى . اذعه خفوت الاصوات وتحولها التدريجي الى الضعف ، ونظر ثم اخذ يحرك ذراعيه بين الاجساد ويؤشر لهم . كان الشاب القصير قد اختفى الان وراسه لا يكاد يصل الى الرؤوس الاخرى من حوله . فجأة ، اصبح الحشد يغلي من الداخل ، فاحس الشاب الطويل بالارتياح ، وهو ينظر الى الافواه . كان ما يزال يحتفظ بتلك الدقة المكتوبة وبينما ينظر الى الايدي كان يحس بانه يخنق وتطفح في داخله طلقة عمياء . اخترقت نسيج الجلد حتى وجدت لها ممرا سهلا ، وباتار العرق المتصبب من الجباه المسطحة الى الافواه ، خيل اليه انه يرى حياة كاملة تشهد عن ولادتها .

قال الشاب في نفسه : (سلاما ايها النافخون على ابواب

المستقبل .)

ذي قار (العراق)

دار الاداب تقدم

يوسف شرورو

في

عين في النهار

مجموعة قصص جديدة

صدرت حديثا